الشاعر المحس

بقلم

ابراهيم أمين فوده

الطَبْعَة الأُولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

الإهداء

الى قراء الأدب العربي المعنيين بشأنه
اقدّم هذه الدراسة
لشخصية ادبية ممتازة مجهولة

ابراهيم امين فوده

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي القارىء

كم في الوجود من رجال يعيشون مغمورين ، ويموتون وهم مغمورون.

وبنسبة مبلغ الأمة من الكمال البشري، والمرحلة التي قطعتها في طريقها إلى المثل الأعلى، يكون تقديرها لرجالها، وإشادتها بفضلهم، وتبينها الفروق الأدبية والعلمية بين أفرادها.

ومن بين هؤلاء الرجال المغمورين، صاحب هذه الشاعرية الفذة، والقريحة الخصبة، التي نحاول دراستها في هذه الرسالة الصغيرة دراسة تحليلية . ولكنها في أسلوب عاجل .

وقد كان من همي في هذه الرسالة، أن أُلِمَّ بجميع نواحي هذه الشخصية، وأمعن النظر في تحليلها، وأدقق في

محاسبتها على ما لها وما عليها، بيد أن هذه الشخصية، تكاد تكون مجهولة تماماً، منسية جداً. لذلك لم أستطع ـ كما لم تستطع دار الكتب المصرية التي أصدرت ديوانه الصغير ـ أن أعثر في ترجمته على أكثر من هذه الكليمات الموجزة المعدودات التي أذكرها حين أعرض كلمة التاريخ في « جران العود » .

فوجهت كل همي إلى تحليل هذه الشخصية، واستنباط كل ما يمكن أن يعتبر ذا أثر في تكوينها: النفساني، والعقلي، والأدبي. من شعره القليل الذي بين أيدينا، لأستعيض بذلك ما فقدناه من الناحية التاريخية. وطبعي أن أجد في بحث على هذا المنوال، أقرر فيه حكماً عن شخصية أدبية بعض العنت.

ولكني أعترف بأنني قد شعرت بشيء كثير من اللذة والمتعة، أثناء هذه السياحة الأدبية الجميلة.

وإذا كان لي أن أقول عن هذه الرسالة ـ شيئاً ما ـ فمن ناحية قيمتها التاريخية باعتبارها رسالة بعث ونشور لشاعر فذ، درست معالم حياته الأدبية. فهي أول رسالة تناولت الحديث عن هذا الشاعر في تاريخ الأدب العربي. فكأنما هي بمثابة إزاحة الستار في تاريخ الأدب عن شخصية شاعر خصب

القريحة حلو النكتة، كريم النفس. هو «جران العود» ليقف حيث يجب أن يكون في أذهان قراء العربية إلى جانب رجال الأدب العربي الذين نتناول الحديث عنهم بسرور، حين نتناول الحديث عن أدبنا العربي.

ومع هذا كله فأجد لزاماً عليّ أن أقول:

إنني لا أعتبر هذه الرسالة دراسة وافية لهذه الشخصية. إنما هي فاتحة لهذا الموضوع، ومقدمة تمهيدية لمن يريد أن يتناول هذه الشخصية فيما بعد بالحديث، حين يراها جديرة بالدراسة والتحليل، وأعتقد أنه سيراها كذلك.

فإن استطعت أن أكتسب محبة القارىء «لجران العود» وشعره، وأن أغرس في نفسه رغبة الاستطلاع على آثاره فذلك جُلُّ ما قصدت إليه.

بل يسرني أن أصرح بهذا القول، لأن في التصريح به تخفيف عبء ثقيل، ربما يحملنيه ويطالبني به من القراء الكرام من عساه لا يرى فيها شفاء لغلته، أو كفاء للبحث.

وكل ما أرجوه، أن أكون قد وفقت في حمل القارىء الكريم على مشاركتي في هذا الشعور باللذة والمتعة حين أنتقل به بين مروج هذا الحقل الأدبي.

وأحسبني، إن وفقت إلى كل ذلك، فقد وفقت إلى كل

ما قصدت إليه. فأكون قد قمت بواجب القارىء على الكاتب ومن ثم أضمن أنني قد قمت ـ بعض القيام ـ بواجبي نحو شخصية الشاعر الذي أردت إزاحة الستار عنه وأن جهودي التي بذلتها في هذا السبيل لم تضع سدى، ولم تذهب أدراج الرياح.

١٣٥٩هـ. **إبراهيم أمين فوده**

جران العود النميري

شاعريته . نفسيته . عقليته



كلمة التاريخ في جران العود

شاعرية مجهولة، تغافلت عنها أبصار الدهور . تلك هي شاعرية «جران العود» النميري من بني نمير. وقد اختلف في اسمه ونسبه، فقيل. هو المستورد، وقيل: عامر بن الحارث بن كلفه. ويجمع أكثر من عرضوا لذكره على أنه لقب «بجران العود» لقوله يخاطب امرأتيه:

خذا حذرا يا حَنَّتي ، فإنني رأيت (جران العود) قد كاد يصلح

وفي رأي العلامة اللغوي، الشيخ محمد محمود بن التلاميذ الشنقيطي. شارح ديوانه الصغير الذي طبعته دار الكتب المصرية أنه لقب (جران العود) لقوله:

عمدت لعود فالتحيت جرانه وللكيس أمضى في الأمور وأنجح

وفي رأيي أنه كان يختار لنفسه هذا اللقب أو لقب به فراقه ، فلقد كان يكنى به عنها في كثير من أبياته ، كقوله :

بدا (لجران العود) والبحر دونه وذو حدب من سرو حمير مشرف

وقوله:

وما (لجران العود) ذنب وما لنا ولكن (جران العود) مما نكلف

وقوله:

حملن (جران العود) حتى وضعنه بعلياء في أرجائها الجن تعزف

وقوله:

وقالت: تبصر بالعصا أصل أذنه لقد كنت أعفو عن (جران) وأصفح

وبعد. فإنك لا تستطيع أن تجد لجران العود ذكراً، أو تعثر بكلمة عنه في كتب تاريخ الأدب واللغة، إلا حين تعرض الأولى لذكر من شهر ببيت قاله، وحين تعرض الثانية لكلمة (جران) من ناحية معناها اللغوي (وهو عنق البعير والعود البعير المسن) ويتلخص ما وقع تحت اطلاعي فيما عرضته آنفاً.

حديثنا عن جران العود

ظلت هذه الشاعرية الفذة، وهذه القريحة الوقادة ذكاء بفطرتها العربية الملتهبة طرباً من أغاني الطبيعة. ملقاة في زوايا الإهمال، مُطَّرحة في جوالق النسيان، تحت أدعاص الزمن، وتقلصت من تحت أجنحة الدهر قرونٌ من السنين و(جران العود) في مكمنه حيث وضعه (الخلد الأدبي) يستمهله الظهور، حتى قيض الله له (دار الكتب المصرية) فبعثت إلى عالم الوجود الثقافي، وهـواة الفن العالي، الذين أخلصوا للفن، وأخلص لهم الفن، ديوانه الصغير الذي درجته يد العصور، بين طيات الأدب المنسي، والتراث المدفون، فكشف للعالمين عن عبقرية هذا الشاعر العربي الفحل، وتراث من تراث الفكر العربي القديم.

ونحن إذ نكتب هذه الكلمة عن (جران العود) ليس من همنا أن نعرض له على هذا الأساس، مما يكتب عن الشعراء

والأدباء في مثل (الأغاني) ومعجم الأدباء وغيرهما، من كتب تاريخ آداب اللغة العربية. أو لما يكتب عنهم في قواميس تراجم الأعلام وسجلات الشخصيات البارزة في العلم والفن والأدب. ولكننا نريد أن نقتطف زهرات يانعة. وباقات عبقرية الشذى، من مروج هذا الشعر العذب. نحللها تحليلاً عاجلاً فيه شيء من الدقة، في محاسبة الشاعر على ما له وما عليه. وإنا لمستظهرون منها معاني عميقة، وبلاغة رائِعة، وبياناً حلواً.

وأنا واثق ـ عظيم الثقة ـ أن سنلقى في هذه السياحة الأدبية شيئاً كثيراً من المتعة، نسري بها عن أنفسنا، أثر هذه الحياة الصاخبة بشكول المعارك والمنازلات. وكثيراً من اللذة، تجعلنا نركن إلى هذا اللون من الأدب الدراسي، ننصرف إليه بكل ما أوتينا من قوة، نتبصر منه مواقع النقد. ونتدبر طرائق القول وشيئاً كثيراً من الطرافة، ننساب إليها بكل شعورنا الحساس.

هذا اللون من الأدب الدراسي، يبعث في النفوس استكشاف المآخذ، وتحديد المعاني، ويغرس فيها سلامة الذوق، وإنعام النظر، وشحذ الفكر.

فهلم معي أيها القارىء الكريم، نرِد هذا المورد، نستقي من نميره، ونُروّي النفس منه، وأنا زعيم أن ستأخذ بك روعة كثير من هذا الشعر نلذ به، ونستزيد منه.

وإنك لواجد بين أدراجه، أحلام نفس شاخصة في ذهنك وأسرار قلب متكشفة بين يديك، كل أولئك في خيال رائع، وتصوير بارع، ولسان عربي مبين.

بيد أننا نريد ـ قبل البدء في الحديث عن شاعرية (جران العود) ونواحيه الأدبية وأساليبه الشعرية ـ أن نتعرف نفسيته فنحلل عواطفه وغرائزه من هواية وعفة وتشاؤم وخصومة، نعتمد في تشريح كل ذلك على طرائق، إفصاحه هو نفسه عن نفسه، ثم نخلص للحديث عن عقليته نتبينها من حكمه وأمثاله، ثم نعرج إلى الحديث عن شعره، فننظر مدى اتساع أفق خياله وآثاره في شعره من بديعه. وَصُوره الشعرية وألوان تفننه في الأساليب الأدبية، فنتلمس كل جانب منها من زاويته الخاصة:

ثم نُجمِّع كلمتنا الأخيرة في الشاعر: نفسيته. شعره. عقليته. على أساس قواعد النقد الأدبي الصحيح، والعدالة التاريخية ما أمكننا السبيل إليها. ولذا كان لا بد لنا حين نريد

إلى إصدار حكم صادق، لا يغمط الشاعر حقه، ولا يضيف إليه ما ليس له، من أن ندرس بيئة الشاعر الاجتماعية. والطبيعية، والغريزية، أو النفسانية (أعني ما أودع الله به من الرغائب، والنزعات والميول) لنعرف أثرها في شعره وعقليته ونحد (بشيء من اليقين لا بكل اليقين) مبلغ هذا الأثر.

البيئة والنفسية والثقافة والشاعر

والشاعر يكون فيه أثران فعالان، يظهران واضحين أشد الوضوح، فنجدهما في أساليبه العامة. وشكول تصويراته المشتركة ونلمسها في فلتات لسانه، وعديد حالاته، أثر من نفسه، وأثر من بيئته.

غير أن نظريات البيئة والنفسية كثيرة، مشتبكة، متشعّبة لا نريد أن نتدخل فيها، فنزوغ عن بحثنا اليوم عن (جران العود).

فالبيئة. وهي كل المرافق الحيوية التي ترافق الفرد منذ نشأته. الأولى من الملابسات والمؤهلات والهياكل الطبيعية، والهيئات البشرية التي يعيش بينها. وما تتمشى عليه هذه الهيئات من أوضاع تسود مجتمعها. وما يتولى أمر بلاده من

هيئة حاكمة وإدارة حازمة، أو مزعزعة الأركان متداعية الجوانب، وما يربط بين أفراد مجتمعه من الاتصال الشخصي والائتلاف الفردي. وما يعتنقه أهل بلاده من العقائد والديانات، وما يدور بخلدهم من الأوهام والأساطير. وما يأخذ بألبابهم من الضلالات، والخزعبلات. وما وصلوا إليه من المعارف والعلوم. وما قطعوا من المراحل في (الفنون الجميلة) وما يحمله هذا الفرد بين جنبيه من الحالات النفسية، التي أودعها الله فيه منذ نشأته. فقد يولد توأمان وينشآن في بيت واحد. وبنوع واحد من التربية ولكن نفسية هذا تختلف عن نفسية الآخر اختلافاً ـ قليلاً أو كثيراً ـ بما أودع الله في كل من الحالات التي تغمر قلبه، فتطفو فياضة بالشعور الذي يغمر ذلك الفؤاد، وهذه حال نشاهدها كثيراً في كثير من الإخوان.

ولعل في هذا تعريفاً عاماً غير ما عهده بعض علماء التربية. والنفس. ولا أدعي السبق إليه.

فأكثر علماء التربية، لم يدرجوا في نفسية الفرد حالاته: النفسية الخاصة به. وربما كانت حجة هذا الفريق أنه كثيراً ما تزول هذه الحالات، نتيجة مرانة وتعويد، ويمكن الإجابة على هذا الرأي: بأن الشخص نفسه يتغير تأثره إذا ما تغيرت

بيئته الطبيعية أو الاجتماعية. فلا يكون دليلاً على عدم تأثره بالبيئة الأولى.

وعلى كل، فقد أصبح من بدهيات المعرفة، أن للبيئة سواء كانت من العوامل الداخلية في الإنسان أو العوامل المحيطة به، أثرها العميق في تكوينه وتنشئته، وتربيته، التربية الجنسية أو الفكرية، أو الأخلاقية، أو تربية صالحة أو طالحة، بحسب مركز تلك البيئة من الحيوية والنشور، وإن كنا لا نستطيع أن نحد (بيقين) مقدار هذا الأثر.

وغالي قوم في أثر البيئة حتى أنهم اعتبروها عاملاً لتحويل النوع من حاله إلى حالة (أي إلى نوع آخر غير نوعه الأصلي).

وقالوا: إن ذلك يكون بعاملين من الوراثة، ومن البيئة التي تحيط به، فتضطره إلى التحسين من شكله ليتمشى مع أوضاعها، وليستطيع الحياة فيها وتنازع البقاء.

وذلـــك ، هو أثر البيئة في كل كائن حي، من حيث هو كائن حي.

فإن لنا أن نقول: إنه ليكون أثرها في الشاعر - على الأخص - كبيراً فعالاً، بل أكبر الأثر من بين هؤلاء

المخاليق، لأن الشاعر ـ بطبيعته ـ حساس مرهف الحس، فهو أولى الناس بالتأثر بهذه العوامل الكونية التي تحيط به. إلا أنه يظل متميزاً عنها ببيئته النفسية .

فأنت حين تقرأ مقالاً أو فصلاً أدبياً، للكاتب السوري فيما وراء البحار تجد خيالاً رائعاً، وتصويراً بديعاً. وكذلك حينما تنشد للشاعر السوري في المهجر قصيداً، تجد شعراً شاعراً طليقاً، يرقص بك ويجتذبك إليه اجتذاباً، حتى لتكاد تشعر بأن دافعاً قوي التأثير يدفعك ـ مختاراً أو غير مختار ـ إلى قراءة هذه القصيدة العامرة بالخيال السامي، واللفظ الجذاب، والأسلوب الرائع، وإنك إذ تجد كل هذه اللذات الشاعرية الخيالية في الشعر والنثر اللذين تسطرهما يراعه (كتاب المهجر وشعرائه) فأنت لا تجد مثل ذلك، إذا ما قرأت فصلاً لكاتب ممن يعيشون على بساط سوريا. وتظلهم سماء سوريا. وإن كنت لا أضمن لك في كلام هؤلاء الكتاب المهاجرين، أسلوباً عربياً فصيحاً رصيناً، تجده عند كبار الكتاب في مصر. ولا أن تجد في كلام هؤلاء ما كنت تجد في كلام أولئك، ولذلك كان غراماً للذين يرون أنفسهم أنهم خلقوا ليكونوا أدباء وشعراء، ان لا يستقلوا في مطالعاتهم بفريق من هذين، فهم عند ما يقرؤ ون عمن فيما وراء البحار يربو

في أرواحهم خيال عذب. وأسلوب لين جذاب. وحين يقرؤون لكبار الكتاب المصريين ينطبع في فطرتهم أسلوب عربي رصين السبك، متين الصلة، جزل اللفظ، ولا أعطل ما لهم من خيال وطابع شعري خاص. فعندما يستقل بإحدى هاتين الطريقتين يتجه اتجاهاً واحداً. وحين يجمع بينهما يستعين من الاتجاهين.

ومن أعظم الأدلة على عظيم أثر البيئة في الشاعر: نفسيته، وعقليته، وشاعريته، القصة المشهورة في هذا الباب قصة الشاعر الحجازي (علي بن الجهم) المتوفي سنة **٢٤٩**هـ الذي كان يعيش بين أحضان الصحراء: رمالها، وجبالها، وإدصامها ،ويختلف بين حيوانات هذه المقاطعات، فجاء أمير المؤمنين (عبد الملك بن مروان) يمدحه فقال:

أنت كالكلب في حفاظك للودّ وكالتيس في قراع الخطوب

فهمّ به بعض الحاضرين، فاستمهلهم (عبد الملك) وأبدى لهم معاذيره، لأنه عرف أن هذا الشاعر لا يعرف في جزيرته، أحفظ للود من الكلب ولا أصمد لقراع الخطوب من التيس. ثم أرسله ـ وقد تفرس فيه النبوغ والعبقرية ـ إلى بلاد العراق، فقضى بها عاماً بين مروجها النضرات. ورياضها

الغناء ونهيريها النمير ماؤهما العذب موردهما . ثم عاد إلى عبد الملك في موسم من المواسم الشعرية، فأنشده قصيدته العصماء الرائعة العامرة بالخيال العذب. واللفظ الحلو التي مطلعها:

عيون المها بين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
أعدن لي الشوق القديم ولم أكن ... سلوت ولكن زدن جمراً على جَمْر
سلمن، وأسلمن القلوب كأنما ... تشق بأطراف الردينية السمر
خليلي، ما أحلى الهوى وأمره ... وأعرفني بالحلو منه، وبالمر
كفى بالهوى شغلاً وبالشيب زاجراً ... لأن الهوى، مما ينهنه بالزجر
بما بيننا من حرمة، هل علمتما ... أرق من الشكوى وأقسى من الهجر
وأفضح من عين المحب بسره ... ولا سيما إن أطلقت عبرة تجري
وإن أنس للأشياء لا أنس قولها ... لجارتها، ما أوسع الحب بالحر
فقالت لها الأخرى: فما لصديقنا ... مُعَنّى وهل في قتله لك من عذر؟
صليه، لعل الوصل يحييه واعلمي ... بأن أسير الحب في أعظم الأسر
فقالت: أذود الحبّ عنه وقلما ... يطيب الهوى إلا لمهنتك الستر
وأيقنتا أن قد سمعت فقالتا: ... مَنِ الطارق المصغي إلينا وما ندري
فقلت: فتى إن شئتما كتم الهوى ... وإلا، فخلاّع الأعنّة والعذر
على أنه يشكو ظلوماً وبخلها ... عليه بتسليم البشاشة والبشر

وإذا كنا لا نستطيع ـ كما قلت ـ أن نحد بيقين مقدار أثر البيئة في كل إنسان، فأحرى بنا ألا نستطيع أن نحده هنا في الشاعر، لما سبق أن ذكرت من أنه يكون فيه أثران فعالان. أثر من بيئته، وأثر من نفسه، فالنفوس البشرية مختلفات. والعواطف الإنسانية مختلفات، والضمائر الوجدانية مختلفات، وإلهام الطبيعة في الأشخاص، يختلف بحسب اختلاف النفوس والعواطف والضمائر وبنسبة مبلغها من الكمال ومن المثل الأعلى.

فالمنظر الواحد، ساراً كان أو محزناً، هزلاً كان أو جداً. طبيعياً كان أو اجتماعياً. يختلف تأثيره في الأشخاص، بحسب اختلاف النفوس والضمائر والعواطف، وأثره في هذه النفوس والضمائر والعواطف، يختلف بنسبة الإحساس الموهوب لكل من هؤلاء.

وثقافة الشاعر تتأثر ببيئته الاجتماعية والنفسية، بل هي على الأصح صورة مزدوجة تجمع بين البيئتين، فتكون منهما مركباً كيمائياً في عقله، فالبيئة تؤثر في تكوينه الأولى أكبر التأثير، ولكنه حين ينضج قليلاً ويستوي إنساناً مفكراً، يكون الأثر الأكبر في تكوينه الشخصي والأدبي، راجعاً إلى نفسيته التي وجدت فيه بالفطرة، وتأثرت بالبيئة.

فأنت ترى رجلاً يعيش في بلاد، هي إلى الهمجية أقرب في ثقافتها وحياتها، بينما تجده يعيش بفكره في عالم آخر، يشارك المدنيين عاداتهم، ويناقشهم أفكارهم ويبادلهم الآراء، وكل ذلك راجع إلى نفسه الطموح ، وضميره الوثاب، ومجهوداته الخاصة، ولكنك هنا أيضاً تلحظ للبيئة الاجتماعية أثراً آخر، هو أثر الواسطة، فالبلاد النائية المنقطعة عنها المواصلات، تقف حجر عثرة في سبيل آماله ومراميه، بينما تساعده المواصلات المستمرة على التأثر السريع بالبيئة الأبعد ، التي يهفو إليها ويرمقها كمثل ، ولكن أثر النفسية يتضح من استلزامه للتأثر بالبيئة الأبعد عن البيئة الملتصقة به، وهنا قد يكون لقوة إحدى البيئتين أثر في طغيانها على الثانية، بيد أن استجابة بعض لهذا الأثر، وعدم استجابة بعض آخر، مع تساوٍ في البيئة الاجتماعية والدراسية وغيرها دليل على اختلاف البيئة النفسية وأثرها دون شك.

ونحن إذ نقول إن في الشاعر أثراً من نفسه، نعلل بهذا ما نجده ـ في بعض الأحايين ـ من أنه قد يرتفع الشاعر في تفكيره أو تصويره ـ على الأكثر ـ عن مستوى عصره، وإن كان قد يضطر بأثر البيئة فيه، إلى أن ينزل في أسلوبه على أساليبهم، فيمتد نظره إلى ما وراء أنظارهم، وتتسع دائرة خياله عن دوائر خيالاتهم. ويشيع في شعره شيء جديد،

تجد فيه لَذّة، ونسكن إليه ما كنا لنجده في أشعارهم وما نستطيع أن نسميه. ويصطبغ بمسحة لا عهد لنا بلون من ألوانها ، وتتلاعب فيه شواخص ما ألفناها فيها ألفنا من مناظر التشخيص عندهم .

وما قد نشهد ـ في بعض أحايين ـ من الصراع العنيف، الذي يقوم بين الشاعر ونفسه، فيأخذه ويستحوذ عليه، قد يضطرب حيناً، فيرتفع غالباً، يُحلّق في سماء البيان ويرتدّ بكل ما تستريح له النفس. ويركن إليه الذوق ويُسِفّ آونة إلى حدود الإسفاف، وينحط بشعره وتصويره بعض الانحطاط، وهو في حين آخر، وسط بين هذا وذلك، فلا هو يقدر على التحليق، ولا هو يسف، ولكنه يضطر فقط أن يكون حيث يكون معاصروه.

ونحن هنا، لا نعني الفوارق الطبيعية البسيطة، بل نعني الفوارق العظيمة الشاسعة البون، مما لا نستطيع أن نتأولها تأويلاً صحيحاً. فما هي إلا اضطراب الصراع بينه وبين نفسه فيه.

وقد تميل به حيناً، إلى الرقة في سهولة التعبير ورصانة المعنى وجزالة اللفظ، وحيناً إلى الجهامة في ركاكة التعبير أو تعقيده، على الأصح. وسخافة المعنى، أو ضآلته وفظاظة اللفظ، إذا صح هذا التعبير.

فما ذلك كله إلا أثر نفسه فيه، وما الشعر إلا (وحي العاطفة) و(صورة النفس) و(حس الضمير) و(إلهام الطبيعة).

فالشعر (وحي العاطفة) قبل أن يكون (وحي الفكر).
والشعر (صورة النفس) قبل أن يكون (صورة الخيال).
والشعر (حس الضمير) قبل أن يكون (إدراك العقل).
والشعر (إلهام الطبيعة) قبل أن يكون (إلهام المعرفة).

ولكن وحي الفكر وإلهام المعرفة وإدراك العقل يرتفع بالشعر ارتفاعاً يجعل من الشاعر مفكراً وفيلسوفاً مطرباً أما وحي العاطفة وصورة النفس وحس الضمير والهام الطبيعة فتجعل من الشاعر مطرباً فقط .

وقد قلت: إن النفوس البشرية مختلفات، والعواطف الإنسانية مختلفات، والضمائر الوجدانية مختلفات. وإلهام الطبيعة في الأشخاص يختلف باختلاف النفوس والضمائر والعواطف، وبنسبة مبلغها من الكمال ومن المثل الأعلى.

فالمنظر الواحد: سارا كان أو محزناً، هزلاً كان أو جداً. طَبَعيّاً كان أو اجتماعياً، يختلف تأثيره في الأشخاص بحسب اختلاف النفوس والضمائر والعواطف، ويختلف بنسبة الإحساس الموهوب لكل من هؤلاء.

والبحث العلمي الواحد، يكون لكل فيه رأي يختلف

عن الآخر، بنسبة استعداد كلٍّ لفهم الحقائق وإدراك المعاني.

والموضوع الاجتماعي الواحد يتنافس فيه الناس. ويبدي كل منهم فيه رأياً يباين رأي الآخرين، بحسب اختلاف وجهات الأنظار، واتجهات الفكرة.

وقد يكاد أن يتحد أثر المنظر الواحد في أشخاص، وتتفق آراؤهم في موضوع اجتماعي واحد، أو بحث علمي واحد، بنسبة تقارب نفوسهم بعضها من بعض، وعقولهم في الإدراك، وضمائرهم في الوجدان، وعواطفهم في الشعور، وأذواقهم في الحس.

وقد يتغير رأي الرجل الواحد في الموضوع الواحد اعتقاداً لا صنعة فالصنعة لا عبرة بها هنا بحيث يكون رأيه في وقت من الأوقات ، مغايراً كل المغايرة، لما كان عليه في حينٍ ما، ولكن ذلك عائد إلى تطور الحياة العقلية للانسان ، وهذه تتأثر بحسب عوامل المد والجزر في ثقافته ونفسيته ففي الشاعر إذاً ، أثر من بيئته في الأسلوب أغلب الشيء. وفي تفكيره صورة صحيحة، ولكنها مصغرة في شكلها الخاص لتفكيرها العام. وفي تصويره نمط من

أنماط الأسلوب التصويري لديها. وفي شعره إفصاح عن عواطفها وأحاسيسها ومشاعرها العامة، مصورة في قالبها الذي يصوغها ـ هو ـ فيه وخياله محصور في منطقة خيالاتها؛ فهو لا يقول إلا ما يشعر، وما يشعر إلا بما يحس، ولا يحس إلا بقدر ما يرى وما يسمع وما يلمس ولا يرى ولا يسمع ولا يلمس إلا ما يحيط به من مظاهر البيئة الاجتماعية. وبواعث البيئة النفسانية، ومناظر البيئة الطبيعية. وما يرتفع خياله، ولا يستمد تصويره إلا مع الاحتفاظ بالنسبة الطردية بين واقع الحياة وأثر العوامل ومبلغ ثقافته وغاية تهذيبه ومدى تفكيره فإذا نحن أردنا أن نتعرف إلى الشاعر، تعرفنا إليه بدرس بيئته، وثقافته، ونفسيته، مقدرين مبلغ أثرها فيه، كما نتعرف الصديق، بما يُمليه علينا مصير التجاريب، ووحي الحوادث.

البيئة والثقافة وجران العود

فإذا أردنا أن نتعرف بيئة (جران العود) كان لزاماً علينا أن نقسم الحديث إلى شطرين:

أولهما: عن البيئة الطبيعية.

وثانيهما: عن البيئة الاجتماعية.

بيئته الطبيعية :

وللحديث عن (البيئة الطبيعية) نوجه نظرتنا الأولى إلى الإقليم الجغرافي، نلحظ خواصه ومميزاته، وتأثير هذه البواعث الكونية في النفسية البشرية عامة، والنفسية الشاعرة خاصة، ونفسية شاعرنا على الأخص.

يجب أن نوجه نظرتنا الأولى، إلى هذه البلاد العربية بصحاريها وجبالها ورمالها ووديانها وما إلى ذلك، مقرنين مع كل تأثيره في مجرى الحياة العربية في الجزيرة ، من الآمال والأماني والاتجاهات الفكرية ، والميول ، والرغبات والعناصر الخلقية المتكونة من هذا الوجود .

فهذا الإقليم تكثر فيه الجبال العالية، والطرق الوعرة، والالتواءات فهي تحبب الاستطلاع إلى النفوس وتشعرها بالجهل ولكن هذه الجبال غير مكسوة بالثلوج أو النباتات الشامخة،وهذه الطرق الوعرة والالتواءات ، غير متجددة المناظر أو مسترعية للأنظار . فهي ساذجة بسيطة لا تغري ، ثم هي على نمط واحد ، لا جديد فيه تقريباً . وذلك ـ مع ماقلنا ـ يخفف من هذه الرغبة الاستطلاعية ، ويعوق استمرار التجوال عند ما لا تحمل عليه بواعث أخرى .

وهذا الإقليم هادىء مسالم،أعني لا أعاصير ولا عواصف

ولا تقلبات شديدة ، فهو لا يبعث على القلق في شيء لاستفزاز كوامن القوى النفسية . من الاحتياط للطوارىء ، أو الاحتيال على الحوادث ، ولكنه مع ذلك وعر المسالك كما قلنا ، أقرب إلى الجدب في كل نواحيه ، منه إلى شيء من الخصوبة ، فهو من هذه الناحية يبعث على الشجاعة والثبات ، وقد كان ذلك كذلك . فالعربي شجاع ثابت . وهو ذكي ، ولكنه في الأغلب الكثير ـ محدود الحيلة . ولذا كان العربي مجيداً حين يفتخر ، لأنه كان يشعر في أعماق نفسه بهذه الشجاعة وهذا الثبات .

وقلنا: إن هذا الإقليم وعر الطرق كثير الالتواءات. وأن هذا كله يولد حب الاستطلاع، ولكن وجود هذه الدوافع على وتيرة واحدة، في كثير من الأحايين، يخفف هذه الرغبة ويعوق استمرارها، ونضيف إلى جانب ذلك أن مَحْل هذا الإقليم، فهو قاحل تقريباً، وتقلب الصيف والشتاء عليه (وإن كانا لا يدعوان إلى حب الاستطلاع كثيراً، فطبيعة الأرض واحدة غالباً وجوها يكاد يكون على وتيرة واحدة في أكثر فصول السنة) ولكنهما يدفعان إلى الترحال، وتطلب الحياة اللينة، والسعي في سبيل اكتساب الرزق.

فطبيعة العربي، استطلاعية بعض الشيء، تحب التجوال والترحل. ولذا ما لبث العربي ـ بعد الفتح الإسلامي ـ حتى شرَّق في الأرض وغرَّب. ولكنه ما لبث كذلك أن أقام

واستوطن في أنحاء هذه البلاد الجديدة . وهذه الرغبة تدعو إلى التقليد. وقد أخذ العربي بعد الفتح، يقلد حضارات الفرس واليونان. وهو ذَكيّ لأن هذا الفضاء الواسع المترامي الأطراف وسَعْيَه وراء الرزق، جعلاه يقظاً فطناً إلى ما يدور حوله من الأمر، وهذا الذكاء ساعد العربي في تنمية هاتين الحضارتين: الفارسية، واليونانية. وصقلها صقلاً جديداً، وهو حر يشعر دائماً بالعزة والأنفة، وبقبضه على زمام نفسه بنفسه. فهو يحب الاستقلال في كل شيء، لأنه ربي عليه، ولم يكن - قط من الدهر - تحت غلبة الفرس أو اليونان أو الرومان . حكاماً حتى حين تكون لهم صلة بالحكام فألف العزة وأنف الخضوع والمسكنة ، وقد كان . فما أن نمّى العربي هذه الحضارة ، وصقلها صقلاً جديداً ، حتى جعل عليها طابعه الخاص وروحه العربية .

والعربي شجاع ثابت، ولكنه في الأغلب الكثير، محدود الحيلة، ساذج التدابير، وقد كان كذلك. فشجاعة العربي أبت عليه الهزيمة إلا إذا احتيل عليه. وقد سبق أن قلنا: إنه ذَكي وهو محب للاستطلاع، وأن هذين يدعوان إلى التقليد. فهو ما لبث هنا، أن قلد سنن الروم والفرس في الحروب، فجمع الشجاعة والثبات ، إلى الحيلة والتدابير .

ومَحْل الأرض، ووعورة الطرقات والالتواءات. وبقاء

المناظر على وتيرة واحدة لا تتغير، جعلت الخيال العربي محدوداً كأنما تمنطقه عديـد من الجبال التي تحيـطه ، وجعلت في بعض ألفاظه صعوبة تجمعها ووعورة السبل صِلَة . ولكن جمال الطبيعة ، وصفاء هياكلها الحيوية يبعثان على سمو الخيال وبراعة المنـطق ، وجودة السبـك . لذا كـان العربي سـامي الخيـال في حدوده الخاصة ، رصين المنطق ، جيد السبك . لأنه كان يحاول في كـل مرة أن يغـير أساليبـه الشعـريـة ، ليصف هـذا الشيء نفسه ، الذي وصفه عديداً من المرات ؛ فـانصرف إلى رصـانة المنطق وجودة السبك ، والسمو بالخيال في حدود ما يتخيل ـ كما قلت ـ ليأتي بشعر لا تمله الآذان ، وقد سمعته مرات ينشد هذا الموضوع .

ذلك هو أثر البيئة الطبيعية في النفس العربية، ونريد بعد ذلك أن نتعرف أثر البيئة الاجتماعية فيها.

بيئته الاجتماعية:

البيئة الاجتماعية للشاعـر العربي في الجـاهلية كـانت سيئة وهي مرحلة معينة في تاريخ الجزيرة لها ما قبلهـا من الحضارات ولها ما بعدها بعد الاسلام . فالجهل عامل رئيسي في فساد الحياة الاجتماعية من كل النواحي .

ومن الـوجهـة الأدبيـة ، فقـد كـان للخـرافـات نصيب في عقل العربي، يبعثه على التشاؤم من العقاب والغراب، ولكن شجاعته وذكاءه الفطري، كانا يدفعان هذه الخرافات

بعض الشيء. بيد أن الغريب أن التشاؤم والطيرة، شيء يعيش حتى القرن العشرين ـ كما يسمونه ـ في عقول بعض سكان أوروبا أيضاً .

فالجهل الذي يفتك بالجسم في صحته وعافيته، وبالروح في دينه وعقليته، والفقر الذي يضرب في أطنابه في جزيرة العرب، كانا عاملين رئيسيين في انحطاط القوى الحيوية ، في الفكر آنذاك بعض الشيء ، في الجزيرة العربية .

ولكن هناك بيئة نفسية تشمل العرب في جاهليتهم هي كونهم كانوا في الحد الأعلى من الرذيلة ولم يكونوا في الحد الأدنى منها فأنا أرى أن الفلاسفةحين قالوا بوسطية الفضيلة لم يلاحظوا الحالة النفسية لطرفي الرذيلة الأعلى والأدنى فإن الطرف الأدنى لها يصدر أو يعبر عن نفسية ضعيفة خوارة لا إيمان لها والطرف الأعلى لها يصدر أو يعبر عن نفسية قوية أصابها الانحراف بقوتها حتى تعدت حدود الفضيلة إعتداداً واعتزازاً وتلك هي الجاهلة ولكن هذه الجاهلة على كل حال طبعتهم بطابع خير من مكارم الأخلاق كان مصدر الحكم والفقه والعزة في سلوكهم وشعرهم .

هذه هي بيئة (جران العود) بل وكل الشعراء الجاهليين. فماذا ترى أن يكون شعره على هذه المقاييس.

ولكنك سترى جران العود في شعره الذي سوف تتلوه،

خيراً مما تتوقع بكثير.

أما ثقافة جران العود، فلسنا نستطيع أن نحدد بالضبط مبلغ ثقافة جران العود، ولكنا لا نستطيع أن نفترضها أكثر من ثقافة عربي كان يعيش في شبه الجزيرة، له لغة العربي الأولى، التي نشأ عليها، ولم تكن قد أفسدتها العجمة، ولا عاث بها الدخيل. يعرف إلى جانب هذا شيئاً من الفلك بقدر ما يهتدى بالنجوم إلى الطريق والفصول والأوقات، وله طبيعته الأبية، وكرمه وشممه وشهامته وقوة إرادته؛ وله إلى جانب ذلك قلب الخلي، وعقل الذكي، وطبعه الشعري. وقد يكون له على عادة قومه إلمام بتاريخ الحوادث، وأيام العرب ومشاهد الحروب. وهو بعد ذلك يعيش عيش البساطة والسذاجة، لا يتكلف في مأكله ومشربه وملبسه وسكناه، ويتداوى حين يحتاج إلى دواء بما اصطلح عليه قومه، كالكي وجبر الكسر وغير ذلك. مما ألفوه وتعارفوا عليه واعتادوه.

ولا نستطيع بعد هذا أن نجرأ على أن نضيف إلى ثقافته شيئاً من العرفان، اللهم إلا أن يكون قد أَلَمَّ بطرف من تاريخ الفرس والرومان والحبّشة وَنُتَفاً من علومهم، وشيئاً من صناعاتهم كما كان يصل إلى بعض من الأعراب، ولكنا نميل إلى أنه لم يكن له نصيب من ذلك، لأن شعره ليس فيه ما ينم عن تأثره بشيء من هذا القبيل.

تلك هي بيئة (جران العود) وهذه ثقافة عصره. وإنما يتعرف الناقد الشاعر ببيئته وثقافته، ليتعرف ما تتطلب هاته البيئة وهاته الثقافة، فلا يصح للناقد الحصيف، أن يتطلب من الشاعر أكثر مما تتطلبه بيئته وثقافته، فمن العبث أن يتطلب من الشاعر العربي القديم السعة الخيالية وسهولة اللفظ . وتوليد المعاني التي نتطلبها من شاعرنا العصري اليوم .

وقد عرفنا بيئة (جران العود) وما تتطلبه وثقافته، فتلك تتطلب تحديد خياله وضيق معانيه، وخشونة ألفاظه. والحد من نظراته ، وهذه تتطلب تحديد تفكيره وخضوعه لمؤثرات البيئة .

ولكننا سنرى ان (جران العود) سما على هذا المستوى بعض السمو- وذلك ضرورة من ضرورات النبوغ الذي يمتاز به الشعراء والأدباء. والخطباء. والعباقرة عن المستوى العادي للأفراد

نفسية جران العود

وجران العود: شاعر خفيف الروح، خفيف الظل، عذب الفكاهة، حلو التندر، لطيف الدعابة في شعره سذاجة الفطرة، ووداعة الطبيعة، وروعة الأسلوب. وفيه حلاوة النطق العربي الفصيح. الذي لا يتكلفه صاحبه حتى يذهب

بنوره، والمنتقي الذي لا يجهده العناء حتى يمسخه، وما ذلك إلا سلامة الطبع، ورقة القلب.

ونفس الشاعر تتجلى في عواطفه وميوله وغرائزه، وهذه تبدو في ملامح وجهه ونظراته وفلتات لسانه.

ونحن هنا نستطيع أن نلتمس نفسية (جران العود) من شعره هذا الذي بين أيدينا، فليس هناك مصادر تاريخية تحلل لنا نفسيته تحليلاً نرتضيه أو لا نرتضيه، أو ذكراً عارضاً لا يفصح لنا عن شيء أيضاً، فهو كما علمت، لم يذكر إلا بهذه الكليمات الموجزة إيجازاً لا يفهم منه شيء، اللهم إلا أنه كان في الوجود الأدبي شاعر يقال له (جران العود) ولم ترو لنا كتب تاريخ الأدب وقواميس اللغة من شعره، غير بيت واحد زعمت أنه كان أصل شهرته بهذا اللقب وهو قوله يخاطب امرأتيه:

خذا حذرا يا حَنَّتي فإنني رأيت (جران العود) قد كاد يصلح

ولذا كان من حسن الحظ أن يقع في يدنا هذا الديوان الصغير الذي طبعته دار الكتب المصرية فما لنا والحالة هذه إلا أن نستنطق هذا الشعر لنتبين منه هذه النفسية في نواحي هوايته وإعجابه بنفسه أو امتداحه لها أو فخرياته وعفته. وعزة نفسه، وفي الهجاء والخصومة في شعره من الناحية النفسية.

وسنحلل كل ذلك في الفصول الآتية في إيجاز وتشريح:

هواية (جران العود) .

كان (جران العود) خدناً تبعاً للنساء تضطرب حياته بالصراع بينه وبينهن، ويمتلأ شعره بالقصص في هذا الشأن ، فهو كلف بهن، يحب الحديث عنهن والحياة معهن، رغم ما يدرر بينه وبينهن دائماً من الصراع والمعارك، التي تنتهي دائماً يهزمته المحتمة المصطنعة.

وقصص جران العود والنساء مضحكات، هي أروع القصص الهزلي في الأدب العربي تصور مظهراً من مظاهر الحياة المنزلية، والعراك بين الزوجين.

وجران العود في هذه الناحية (صلته بالنساء) ضعيف الإرادة هزلي النزعة، فهو يقف بين أيديهن مكتوف اليد وقفة المضطرب ويتدحرج أمامهن كما يفر الأعزل.

وإليك مثلاً من شعره قوله:

تداورني في البيت حتى تكبّني   وعيني من نحو الهراوة تلمح
وقد علمتني الوقد ثم تجرني   إلى الماء مغشياً على أرنح

وقوله:

وقالت: تبصر بالعصا أصل إذنه   لقد كنت أعفو عن (جران) وأصفح
فَخَرّ وقيذاً مسحلباً كـأنه   على الكسر ضبعان تقعّد أملح

وهو يقول عن نفسه:

كأن النميري الذي يبتغينه بدارة رمح ظالع الرجل أحنف

(وما هو أمامهن إلا كذلك)

حتى أصبح يقول لألفه الوقذ وتعوده إياه.

ولم أر كالموقوذ ترجى حياته إذا لم يرعه الماء ساعة ينضح

إمتداح جران العود نفسه

وامتداح الشاعر نفسه أو الفخر، كما يسميه القدماء قليل في شعر (جران العود) فهو لا يأتي به إلا عرضاً بين أبيات قصيدة غزلية. كما يوعز إليك الرجل باللمحة العارضة أو الإشارة السريعة، ومن امتداحه نفسه قوله:

وقالت لنا: والعيس صعر من البرى وأخفافها بالجندل الصم تقذف

وهن جنوح مصغيات كأنما يراهن من جذب الأزمة غلف

حمدت لنا حتى تمناك بعضنا وأنت امرؤ يعروك حمد فتعرف

رفيع العلا في كل شرق ومغرب وقولك ذاك الآبد المتلقف

وفيك إذا لاقيتنا عجرفية مراراً وما نستطيع من يتعجرف

تميل بك الدنيا ويغلبك الهوى   كما مال خوار النقا المتقصف
ونلقي كانا مغنم قد حويته. . .   وترغب عن جزل العطاء وتسرف

و (لجران العود) غير هذه الأبيات بيتان خالصان للفخر، لم يجره إليهما الاستطراد، ولم توحيهما إليه المناسبة، هما:

نحن النجوم يرانا الناس كلهم   بوناً بعيداً عن المخزاة والعار
لو كانت النار للأعداء موقدة   ونحن شَنٌّ إذاً هالوا إلى النار

ويقول من قصيدة غزلية:

ألا يا رب ذي شرف ومجد   سينسب إن هلكت إلى القبور
ومسبوح الأشاجع أريحي   بعيد الذكر كالقمر المنير
رفيع الناظرين إلى المعالي   على العلات ذي خلق يسير
يكاد المجد ينضح من يديه   إذا رفع اليتيم عن الجزور
وألجأت الكلاب صبا بليل   فآل نباحهن إلى الهرير
وقد جعلت فتاة الحي تدنو   مع الهلاك من عزم القدور
وكان اللحم يبسره أبوها   أحب إلى الفتاة من العبير
فما أنا للمطية بابن عم   ولا للجارة الدنيا بزير
ولكن ما تزال بي المطايا   خفاف الوطء جائلة الصقور
ببلقعة كان الأرض فيها   تجهز للتحمل والبكور

وهذه الأبيات من أجود ما قيل في الفخر.

ولله ما أروع هذا البيت، الذي أستعيده المرة تلو المرة،

وملء نفسي شعور ما أستطيع أن أكيفه تكييفاً صحيحاً.

يكاد المجد ينضح من يديه إذا رفع اليتيم عن الجزور

ولعل مما كان يساعد (جران العود) على ندرة امتداحه لنفسه عاطفته غير التجهمية، وللنساء في هذا نصيبهن الأوفر في ترقيق حواشيه بعض الشيء، وإن كانت عزته وغروره الشعري يأبيان عليه أن يعترف بذلك، إلا أن يسبقه لسانه في سرد قصة أو رواية حادثة له معهن . أو لعله يستحلى ذلك يتفكه به .

عفة جران العود

(وجران العود) فيما يبدو لنا، بالرغم من استخفافه بنفسه مع النساء. عفيف كريم النفس. وتتجلى هذه العفة بأروع مظاهرها في هذه الأبيات التي نسوقها إليك:

أقسمت لا أبغيك شاة منيحة وعندك حواء منيع وحنظل
وصهب صفايا قد أظل نتاجها مجاليح في عام التمام المجزل
لأن يتجلى الليل عنها خميصة كان حشاها طيّ برد مسلسل
أعف وأنقى من لئيم أَكَدَّه أجاد له عن ماله وهو أجدل

وإن كان هذا النمط من الشعر العفيف غير كثير، ولا تكاد تجد له غير هذه الأبيات فيما سبق، من أبيات ذكرناها لك حين عرضنا للحديث عن امتداحه نفسه:

فما أنا للمطية بابن عم ولا للجارة الدنيا بزير

ولكنها تتفق مع ما قلنا عن حالة العرب النفسية والخلقية إلا أن اعتزازه بنفسه ، وترفعه عن الهجاء والمهاترة بالنقد القذر ، وعزته مع أقوى الشخصيات ، أو مع من تخور قواه أمامهن ـ على الأصح ـ ثم ليس فيما جاءنا عن (جران العود) زلقة لسان كما يقولون . أو حديث رواية ما تثبت أنه كان منتقلاً يتبع كل كاعب حسناء يقع عليها طرفه ولكنه كان ، كما يبدو من شعره ، يفصح عن غريزته الجنسية عن طريق الإفصاح العادي وهو (الزواج) وكل أولئك دليل على عفته .

عزة جران العود

ويختلط علينا الأمر في شأن جران العود، حين نراه في قصصه الهزلية يبدي ضعفاً عظيماً في إرادته أمام النساء، وعجزه عن تماسك كيانه بين أيديهن ثم هو في مثل هذا البيت الآتي:

فقلت: وقل: ذاك لهن مني سقى بلداً حللن به القطارا

يحترس أن يتبادر إلى ذهن القارىء، أنه كان يكثر من استعطافهن، وخفض الجناح لهن. ونرى مثل ذلك منه في قوله الذي ذكرناه لك عند الحديث عن امتداحه لنفسه:

وقالت لنا والعيس صعر من البرى   وأخفافها بالجندل الصم تقذف

وهن جنوح مصغيات كأنما   بَرَاهُنَّ من جذب الأزمة غلف

حمدت لنا حتى تمناك بعضنا   وأنت امرؤ يعروك حمد فتعرف

رفيع العلا في كل شرق ومغرب   وقولك ذاك الأبد المتلقف

وفيك إذا لاقيتنا عجرفية   مراراً وما ونستطيع من يتعجرف

تميل بك الدنيا ويغلبك الهوى   كما مال خوار النقا المتقصف

ونلقى كأنا مغنم قد حويته   وترغب عن جزل العطاء وتسرف

ثم هو تأبى عليه عزته إلا أن يقول:

فتقتلني وأقتلها ونحيا   ونخلط ما يموت بالنشو

كلانا يستميت إذا التقينا   وأبدى الحب خافية الصدو



الخصومة والهجاء في شعر جران العود
من الناحية النفسانية

لم يكن (جران العود) وليس في شعره هجو بالمعنى
المفهوم من هذه الكلمة، فإذا أردنا أن نؤول بالهجاء إلى
الخصومة، لم نجد فيما جاءنا من شعره غير هذه الأبيات.
وهي بين الخصومة والهجاء:

ألا أبلغ لديك بني كلاب وإخوتها معاوية بن بكـ
فليت الناقمية لم تلدكم ولم تحملكمو منا بظهـ
فإن سوام ما صرتم إليه رتاع بين أفطاس وسعـ
حماه من يمتعه بقود ويمنعكم مخافة كل بعـ
أإن غضبت كلاب في عقار تعد لنا النوابغ ذنب صخـ
ولو أنا نخاف الحي. نضرا لدعثرنا ديارهمو بحجـ
برزق في مثقفة حرار تقوم في قناة الخص سمـ

ومن هنا يبدو لنا أن (جران العود) لم يكن مفحش القول،
أو بذيء اللسان. كما كان بعيداً عن خصومات الأعراب.

وللأعراب خصومات تزخر بها أشعارهم. ويتبادلون فيها لقصائد والأراجيز، متنابذين بالألقاب، ومستعيدين بها ذكريات الأيام المشهودة، والحروب الطاحنة.

التشاؤم في شعر جران العود

والتشاؤم أو الطيرة من عادات العرب الجاهليين. والتشاؤم يعيش في العقول حتى هذا العصر في أوروبا يضاً، فلا بد (لجران العود) في هذا من نصيب.

فهو يقول من قصيدته الحائية التي سنعرض لها عند حليلها نموذجاً للشعر القصصي في الأدب العربي، والتي عد بحق من روائع الشعر القصصي في الأدب العربي:

جرت يوم رحنا بالركاب نزفها عقاب وشجاج من الطير متبح

أما العقاب فهي منها عقوبة وأما الغراب فالغريب المطوح

عقاب عقبناه ترى من حذارها ثعالب أهوىٰ أو أشاقر تضبح

عقاب عقبناه كان وظيفها وخرطومها الأعلى بنار ملوح

وهو كما ترى أيضاً، يصور هذه العقاب وهذا الغراب، أشنع منظر يثير به جزع القارىء وسخطه، ليشاركه الطيرة والاشمئزاز، فهو يتطاير فيفسر هذه المصادفة بقوله:

فأما العقاب فهي منها عقوبة وأما الغراب فالغريب المطوح

ليوقع في نفس القارىء أو السامع ـ بالنسبة إليه على الأصح ـ الوهم، ثم يصف هذه العقاب بأبشع ما يتصور فيقول:

عقاب عقبناه ترى من حذارها ثعالب أهوى أو أشاقر تضبح
عقاب عقبناه كان وظيفها وخرطومها الأعلى بنار ملوح

ليثبت هذا الوهم من نفس سامعه ويستزيده جزعاً وتطايراً

عقلية جران العود

وبالرغم من ضعف إرادته واستسلامه المهين، واستكانته أمام النساء التي تتجلى واضحة في حوادثه معهن التي يرويها لنا في شعره، وإن كان يشوبها شيء من التهويل. وتنمقها النكتة إلا أنه فيما يبدو لنا. ذو عقلية ناضجة وبصيرة ثاقبة. وفكر صهرته الحوادث، وهذبته التجاريب.

وليس من شك في أن عفته وعزته، اللتين لمسناهما فيما سبق وترفعه عن الهجاء والخصومة، وحكمه التي سنتحدث

عنها دليل على نضوج هذه العقلية واكتمال هذه البصيرة.

فالعفيف الذي يشعر بعزة نفسه، ويترفع عن سفاسف الأمور. هو بلا ريب، ذو عقلية تهديه إلى الخير، وإلى حيث يضع نفسه.

وعلى كل، فهو كما يبدو من نفسيته ومن ترفعه عن التنزل بالغزل إلى مستوى غير لائق، كما سنرى حين نعرض للحديث عن غزله، ذو عقلية ناضجة. ولكن مع الاحتفاظ بالنسبة إلى مستوى العقليات التي كانت تشاركها الحياة.

و (جران العود) يلقي إليك بالحكمة الصائبة العجلى عرضاً يجره إليها الاستطراد، أو تجره إليها المناسبة.

وإليك مثلاً من حكمه قوله (وفيه خلاصة تجاربه في الاختلاط مع النساء).

ولسن بأسواء فمنهن روضة تهيج الرياض غيرها لا تصوح
جمادية أحمى حدائقها الندى ومزن تدليه الجنائب دلح
ومنهن: غل. مقمل. لا يُقِلُّه من القوم إلا الشحشان الصرنقح

وكقوله في مفتتح ديوانه (أول هذه القصيدة نفسها).

الا لا يغرن إمرأ نوفلية على الرأس بعدي أو ترائب وضح
ولا فاحم يسقى الدهان كأنه أسا وديزها هالعينيك أبطح

وأذناب خيل علقت في عقيصة ترى قرطها من تحتها يتطوح
فإن الفتى المغرور يعطي تلاده ويعطي الثنا من ماله ثم يفضح
ويغدو بمسحاح كان عظامها محاجن أعراها اللحاء المشبح

وما أجمل هذا البيت، وموقع قوله (من ماله) منه:

فإن الفتى المغرور يعطي تلاده ويعطي الثنا ـ من ماله ـ ثم يفضح

وكقوله:

فلما هبطن السهل واحتلن حيلة ومن حيلة الإنسان ما يتخوف

وقوله:

فتلك التي حكمت في المال أهلها وما كل مبتاع من الناس يربح

وقوله:

ولا تأمنوا كيد النساء وأمسكوا عرى المال عن أبنائهن الأصاغر
فإنك لم ينذرك أمراً تخافه إذا كنت عنه جاهلاً مثل خابر

ولله دره في هذا البيت الحكيم:

فإنك لم ينذرك أمراً تخافه إذا كنت منه جاهلاً مثل خابر

وإن كنت لا تجد كثيراً من مثل هذه الحكم في ديوانه
الصغير. وهو ـ على ما أظن ـ نزر يسير مما قال هذا الشاعر
الفحل.

شعر جران العود

الشعر ألفاظ لا يلقيها الشاعر جزافاً هكذا. وإنما يلقيها
ي نبرات مخصوصة، تزيد من روعتها في مسمعك، وفي
صور جذابة تمتلك عليك نفسك. وإنما يكون لها ذلك
الاستعارات والتشبيهات، والمجازات، والتصوير الرائع،
المعنى الجميل.

وما الوزن إلا هيكل، فإذا خلا الشعر من المعنى
لعميق، والشعور الرقيق، فما هو إلا هيكل خاوٍ، لا يصح لنا
ن نسميه شعراً، إلا كما يصح أن نسمي الجثة الهامدة
نساناً.

ونحن في (جران العود) نجد لذة، ونسكن إليه ، وإن كان
عنا غريب النسق. غريب التشبيه. هذه الغرابة هي الفرق بين
طالب بيئتنا الحاضرة وبيئته هو.

(فلجران العود) تصوير بديع، وتنميق رائع، وله قصص
كهي عذب مضحك. وله اعتزاز مما يفخر به الشعراء لطيف
غزل رقيق وديع.

وستجد فيما ستقرأ من شعره أمثلة صادقة لهذه المعاني.

خيال جران العود

التخيل عند علماء البلاغة، عكس التحقيق وهو ما لا ينطبق والواقع: أو ما ينكره العقل بالبداهة.

والمخيلة والمفكرة عند الفلاسفة: هما القوة التي تتصرف في صور الأشياء. فإن تصرفت في حدود العقل سميت (مفكرة) وإن تصرفت خارج هذه الحدود سميت (مخيلة).

ونحن هنا، لا نريد أن نقصر معنى هذه الكلمة، على مقتضى هذين التعريفين (البلاغي والفلسفي) فحسب، ولكنا نريد أن نجري فيه على مجرى العصر، وأن نتوسع في شأنها، باتخاذ المعنى المقصود اليوم لها، من أنها استخلاص المعاني العميقة في أساليب دقيقة مبتكرة.

وإنما تكون قمة خيال الشاعر تبعاً لتداعي المعاني عنده، وهذا يرجع إلى اقتران المعنيين في الذهن، أو التباين أو التضاد بينهما، أو أن يكون بينهما تشابه.

وإنما يختلف تداعي المعاني عند الشاعرين باختلاف العواطف النفسانية، ونسق التربية التي ربي عليها.

والمخيلة تستبين بقوة الذاكرة، فتتداعى المعاني، فتقوم المخيلة بعملية (التخيل التحضري) فتستحضر منها العناصر التي يقتضيها المقام، ثم تنصرف في تأليفها سلسلة منتظمة الحلقات.

وهذه هي عملية (التخييل الإبداعي أو الاختراعي).

وفنون الخيال على أساليب عدة، منها:

تحقير العظيم، وتعظيم الحقير، وإنزال الموجود منزلة المعدوم وتصوير الشيء بصورة حقيقية وغير حقيقية. وهذا يكون بتخيل المحسوس في صورة المعقول، أو تخيل المعقول في معنى المعقول.

وجودة الخيال تتأثر في نفس الشاعر، بامتلاء الحافظة بمظاهر الحياة، وشكولها المختلفة، وبطلاقة الشاعر في البيئة الحرة.

وبراعة الخيال تتكون في ثلاث:

١ - في غموض وجه الشبه بين مواد الصورة.

٢ - وفي ابتناء الخيال على معان متعددة.

٣ - وفي تأليف المعاني وفق الذوق السليم.

فعلى ضوء هذه المقدمات التمهيدية، المقتضبة عن

(الخيال) و (مباحثه) و (فنونه) نستطيع أن نصدر حكمنا في خيال الشاعر، الذي نريد دراسته عدلاً خالياً من الإفراط والتفريط، فلا نغلو فيه، فنهبه أكثر مما يملك، ولا نبخسه حقه.

فعاطفة (جران العود) النسائية تستدعي المعاني الغزلية، والمعاني الغزلية تتداعى معها معاني الاستعطاف. ولأن علاقة زوجية كما يصورها شعره،فلا تتداعى معاني الشكوى والألم من الفراق، وحر النوى، وبعد المزار، ومع هذا تتداعى معاني امتداح النفس لترشيحها.

ونسق التربية التي ربي عليها (جران العود) نسق التربية الجاهلية، تحيط به مظاهر الحياة الجاهلية وصورها، وهي مرافق حيوية أولية ساذجة. ومناظر فطرية جذابة، ووسائل حربية بسيطة، وتخيلات فكرية ضيقة لا تحيط إلا بمعان قريبة بدائية.

أما طلاقة الشاعر في البيئة الحرة. فطلاقة البدوي في الأمة وسيكون كل أولئك في أسلوب قوي. متين. ترقرقه سلالة الطبع ودماثة خلقه.

وسيكون كل أولئك ـ أيضاً ـ على نمط التربية التي ربي

عليها مصورة بصور الحياة التي عاش فيها متأثراً بمظاهرها. الجوية. والفطرية. والحربية. والفكرية.

وخيال (جران العود) خيال رائع جميل ولكنه غير بعيد المـدى لا يحلق في أجواء عـالية جـداً وله في هـذا ـ عذره ـ كـما قدمنا ـ .

الصور الشعرية

وحديثنا في هذا الفصل (الصور الشعرية) إنما هو حديث عن قوة الشاعر التصويرية والتحليلية.

وأحب ألا يتبادر إلى ذهن القارىء الكريم ان الحديث عن (الصور الشعرية) هو الحديث نفسه عن (الخيال) أو هي البديع من الاستعارة والتمثيل. والكناية.

فالخيال ـ كما قلنا عند الحديث عنه ـ في مصطلح البلاغيين (ما ينكره العقل أو لا يقبله بالبداهة) وعند الفلاسفة ـ (تصرف القوة الفكرية خارج حدود العقل).

فكلا هذين التعريفين لا يشتبهان (على القارىء) والصورة الشعرية ـ حين نعرفها له ـ.

ولكن ما نحس أن يقع الاختلاط بينه وبين الصورة الشعرية هو تصرف المحدثين في معنى الخيال إلى جعله

(استخلاص المعاني العميقة في أساليب دقيقة مبتكرة ـ كما قلنا وهو الذي جرينا عليه وأخذنا به في الحديث عن الخيال).

فنحن لا نعني (بالصورة الشعرية) ما عنيناه (بالخيال) في الفصل السابق ولا نعني به (الاستعارة والتمثيل والكناية ومثيلات هذه البدائع البلاغية) فتلك هي المعاني الجزئية.

ولكنا نعني (بالصورة الشعرية) (المجموعة التي ينظمها الشاعر من الخيال فتداعي المعاني اليه والبدائع البلاغية من الاستعارة والتمثيل والكناية وغيرها كل أولئك في لفظ جزل وتعبير رصين وأسلوب متين لتكون صورة تحليلية منمقة أخاذة محيطة بأسباب ما يريد تصويره وجميع أنحائه. مثبتة لمعناه في النفس وهذه هي الصورة الشعرية إلتي نقصد إليها.

وقد يحلق الشاعر بعيداً عن الحقيقة (التي يعرفها الناس ضد الخيال) ولكن هذا الخيال ـ في الواقع ـ حقيقة ثانية هي حقيقة شعوره نحوه من نفور من الشيء أو تعلق به أو غير ذلك فينتقل ـ وعلى الناقد أن ينتقل معه ـ من هذه الحقيقة إلى تلك.

وأهمية (الصور الشعرية) تصوير الغرض الكلي المقصود. المتكون من مجموع المعاني المتفرقة اشتاتاً في

الهيكل الشعري في صورة بالغة التأثير متمكنة من النفس حتى ليقرأها القارىء وما يدري أهو يرى صورة محسوسة من صور الوجود الناطق أم ينشد قصيداً على قرطاس.

(فللصور الشعرية) أهميتها. حين يريد الشاعر أن يبعث الشعور الحماسي من القلوب إزاء خطر يهدد أو خطب يفجأ. أو حين يريد أن يستدر العطف الانساني في حادثة مؤسفة أو فاجعة مؤلمة أو حين يريد أن يعمل ليلاقِيَ كارثة مدلهمة تنذر بصيرورتها أو يبعث الغيرة إلى اتقاء انهيار . وحين يريد أن يوجه الأنظار إلى العناية بمشكلة أو يجتذب الأفكار إلى حل معضلة.

(للصورة الشعرية) كل ذلك الأثر حين يصور الشاعر (فداحة النازلة) وخطورة المواقف أو يمثل ذلة البؤس وهوان المسكنة. أو يجلجل على أوتار العواطف السامية أو يضرب على مواقع التأثير في المشاعر النبيلة.

اختلاف الصور الشعرية:

وتختلف (الصور الشعرية) ـ بداعة واتقاناً. وتعقيداً وارتباكاً ـ باختلاف عواطف الشعراء وشعورهم الشخصي تبعاً للظروف. من صدق اللهجة. وسمو الفكرة التي يحملونها وقوة الايمان بالدعوة التي يدعون إليها والاخلاص لها وما

تتفاوت فيه أقدارهم من (الحاسة الفنية) أو الذوق السليم والرسوخ في اللغة. وملاحة التأويل. وحلاوة البلاغة وجمال التصوير. وطلاوة الخيال الحر البيان.

الموازنة بين الصور الشعرية

وللموازنة بين (الصور الشعرية) يضع الناقد على المشرحة صورة موحدة (أعني صورة تحليلية لمعنى واحد) عند شاعرين أو أكثر فيأخذ في نفسهم الغرض العميق وفحص المعنى العويص وإرسال الفكر وراء المرمى البعيد حتى يحيط علماً بما تنطوي عليه. وما تحتويه فينظر إلى مدى ما تحتويه كل صورة من حسن التصوير وجدة التفكير وابتكار الخيال وجلال المعنى وروعة الحسن فيمهد للحكم العادل ـ مقدماته الأولية ويبتني أساساته القوية ثم يحكم للأدق حياكة والأروع تصويراً .

بديع جران العود

ونريد هنا ـ ان نسرد طائفة من شعره نحلل فيها خيال (جران العود) البديعي ففي مثل هذا البيت الذي جئنا به ضمن أبيات من حكمه:

ولا فاحم يسقى الدهان كأنه أساود يزهاها لعينيك أبطح

(يريد الشعر الأسود القاتم) فيتصوره ـ وقد سقى الدهان فكان له بريق ـ حيات تتلامع في رمال البطحاء.

وهو يتصور المرأة المسحاح (السرّيعة الخطى ـ وهو عيب في النساء وعلى زعمهم) وكان عظامها ·لإعوجاجها. وهزالها صوالجة نزع عنها المشبح لحمتها فيقول من هذه الأبيات ـ الحكمية نفسها.

ويغدو بمسحاح كان عظامها محاجن اعراها اللحاء المشبح

ويتصورها وقد ابتز عنها قميصها ظليماً لا ريش له على ذنبه وساقيه خفيف الموخر فيقول.

إذا ابتز عنها الدِّرْع قيل مطرد احص الذنابي والذراعين أرسح

ويشبه العقاب التي جرت يوم عرسه وكأنما أحرق بالنار منسرها وساقها العقيم في هذا البيت:

عقاب عقبناه كـان وظيفها وخرطومها الأعلى بنار ملوح

وهو في قوله :

فخر وقيذاً مسلحباً كأنـه على الكسر ضبعان تقعر املح

يشبه نفسه وقد تدحرج مغشياً عليه ممتداً كما يرتمي الضبعان الأملح وهو يشبه المرأة الحسناء طيبة الخلق بروضة تصفر الرياض وييبس نبتها وإلا هي فقد منع حدائقها الندى ان يعبث بها وتدليها ـ السحائب الجون الدلح فيقول:

ولسن بأسواء فمنهن روضة تهيج الرياض غيرها لا تصوح
جمادية أحمى حدائقها الندى ومزن تدليه الجنائب دلـح

وليتبصر القارىء الكريم معنى جميلاً بعيداً في (حماية الندى للحدائق ان يعبث بها) وهو يشبه الهديل (أو الفرخ ـ ابن الحمام) الغامز في مشيته بسكران يغني من نشوة الخمر فيقول.

كان الهديل الظالع الرجل وسطها من البغي شريب يغرد مترف

وهو يرى الأوانس يصلصلن الحجول كأنهن أبكار مها متآلفات الناس كأنما ربين في البيوت في قوله :

وبيضا يصلصلن الحجول كـأنها   ربـائب أبكـار المهـا المتـالف

وما ابدع التشبيه في هذا البيت:

فبت كان العين افنان سدرة   عليها سقيط من ندى الليل ينطف

فهو يشبه عينه والدمع ينحدر بافنان سدرة عليها جليد فهي تنطف فطال عليه الليل حتى جعل ينتظر سهيلاً حين يطلع آخر الليل ثم ما يلبث أن يسقط كما تطرف العين.

أراقب لوحا من (سهيل) كأنه   إذا ما بدا من آخر الليل يطرف

ثم انظر سذاجة التشبيه في روعة الفطرة حين يقول:

لحقنا وقد كان اللغام كأنه   ـ بلحس المهاري والخراطيم ـكرسف

فيشبه زبد أفواه الابل بلحس المهاري وانوفها بالقطن ومثله قوله:

وكان الهجان الأرحبي كأنه   ـ براكبه ـ جون من الليل أكلف

فيشبه الأبيض من الابل الأرحبي. سواداً من الليل لم تصف حمرته من سواد أطرافه.

ويشبه أسنان الكاعب العذاب. وريقها والنشوة التي تخالطهن بالخمر في قوله:

كان ثناياها العذاب وريقها   ونشوة فيها خالطتهن قرقف

ثم هي تهين جليد القوم فكأنه مريض محنة يئست منه العائدات فيقول:

تهين جليد القوم حتى كأنه   دو ئيست منـه العوائد مدنف

وهو يشبه نفسه أمام النساء كالغامز في مشيته تقبل قدمه على الأخرى فيقول:

كان النميري الذي يتبعنه ـ بدارة رمح ـ ظالع الرجل احنف

ويشبه قلبهما وقد باتا قعوداً من سدة الخوف بقطا وردت الاشراك فنشبت فيها فيقول:

فبتنا قعوداً والقلوب كأنها قطا شرع الاشراك مما تخوف

ثم إليك قوله:

ينازعنا لذا رخيما كأنه عوائر من قطر حداهن صيف

فيشبه الحديث المخفوض الذي تجاذبا أطرافه بمتفرقات من القطر جئن من قبل الصَّيف . وإليك هذا الخيال الرائع والمعنى الجميل في قوله:

كلانا نستميت إذا التقينا وأبدى الحب خافية الضمير
فاقتلها وتقتلني ونحيا ونخلط ما يُمَوِّتُ بالنشور
ولكنا يموتنا رسيس تمكن بالمودة في الصدور
رشيف الخامسات وقيط هضب قليل الماء في لهب الحرور

وهنا روعة الجمال وبراعة الوصف وحسن المجاز في قوله:

يكاد المجد ينضح من يديه إذا رفع اليتيم عن الجزور

(يعني نفسه) ـ وقد ذكرنا ذلك عند الحديث عن امتداح (جران العود) نفسه وفي قوله:

ببلقعة كان الأرض فيها تجهز للتحمل والبكور

يريد أن يقول. كأنما تنهب الأرض من تحتهن فهن تبادرن بالاسراع في السير.

وهو يشبه شدة امعان نظره في كسر بيتهن بشدة نظر الضبعان بين السخابر في قوله:

أصبحت قد جُمِّحْتُ في كِسر بيتكم كما جمح الضبعان بين السخابر

وهذا خيال جميل في هذه الأبيات الآتية:

ادهقان حال الناي دونك والهجر وجمع (بني قلع) فموعدك الحشر
الاليتنا من غير شي يصيبنا (بتهلك) لا عين تحس ولا ذكر
بعيداً عن الواشين ان يمحلوا بنا وراء الثريا والسماك لها ستر
الاليتنا طارت عقاب بنا معا لها سبب عند المجرة أو وكر
الا طرقت دهقانة الركب بعدما تقوض نصف الليل واعترض النسر
فقد كانت الجوزاء دهنا كأنها ظباء امام الذئب طردها النقر
فما ألمتنا والركاب مناخه إذا الأرض منها بعد لمستها قفر

وهو يشبه الايك وقد صدحت عليه الورق نائحات تلتذ من الندامى. وقوله:

كان الايك حين صدحن فيه نوائح يلتذذن به الندامى

هذا قليل من كثير من بدائع (جران العود) في شعره أردت أن أسوق أمثلة منها. وأحب أن أترك للقارىء الكريم

فرصة الاستنتاج بنفسه ـ من أمثال هذه البدائع حين يتناول ديوانه بين يديه.

الهجاء والخصومة في شعر (جران) من حيث الشاعرية

عرضنا في مبحث من مباحث (نفسية جران العود) إلى الهجاء والخصومة في شعره ولكننا عرضنا له ـ هناك من حيث النفسية لا من حيث الشاعرية فالهجاء والخصومة في شعر (جران العود) غير موجودين ووجود أبيات سبعة في ديوانه هي بين الهجاء والخصومة لا فاحشة القول ولا فظة الخصام أمر لا يحسب له حساب.

ونحن ـ هناك ـ حكمنا من ناحيته النفسانية بأن (جران العود) لم يكن بذيء اللسان كان بعيداً عن أساليب (النقد القذر) بعيداً عن (خصومات الاعراب).

ونريد ـ هنا ـ من حيث الشاعرية ـ أن نحكم بأن جران العود لم تساعده نفسيته على أن ينصرف إلى هذه الناحية (الهجاء والخصومة).

الغزل في شعر (جران العود)

(لجران العود) غزل تصويري بديع تعرف فيه روح العربي الشجي. والمحب المتيم والنفس الصابية. ولكنه عذب ـ قبل كل شيء ـ سلس وديع ـ بعد كل شيء ـ يترقرق سلسالاً من فم (جران العود) حلو النبرات. رقيق المقاطع. كما يتسلل الجدول هيناً ليناً فيه نشوة وعذوبة واتزان.

ونحن نقدم بين يدي القارىء الكريم منه نماذج نعلق عليها تعليقاً بسيطاً. قال جران العود:

ذكرت الصبا فانهلت العين تذرف ... وراجعك الشوق الذي كنت تعرف

وكان فؤادي قد صحا ثم هاجني ... حمائم ورق (بالمدينة) هتف

يذكرننا أيامنا (بعويفة) ... وهضب (قساس) والتذكر يشغف

وبيضاً يصلصلن الحجول كأنها ... ربائب أبكار المها المتالف

فبت كان العين افنان سدرة ... عليها سقيط من ندى الليل ينطف

أراقب لوحاً من (سهيل) كأنه ... إذا ما بدى من آخر الليل يطرف

وهذا غزل رقيق في تصوير بالغ في البراعة.

وقوله:

وخود قد رأيت ـ بها ركول ... برجليها الدمقس مع الحرير

إذا استقبلتها كرعت بفيها كروع العسجدية في الغدير
كـلانـا نستميت إذا التقينـا وأبدى الحب خافيـة الضمير
فتقتلني وأقتلها ونـحيـا ونخلط ما يموت بالنشور
ولـكنـا يموتنارسيس تمكن بالمودة في الصدور
رشيف الخامسات وقيظ هضب قليل الماء في لهب الحرور

ولله ما أروع هذين البيتين:

كـلانا يستميت إذا التقينا وأبدى الحب خافية الصدور
فتقتلني وأقتلها ونحيا ونخلط ما يموت بالنشور

وهما من أعذب الغزل وأحلاه.

ويحز النوى في كبده فينبعث يقول:

أيا كبدا كادت عشية (غرب) من البين اثر الظاعنين تصدع
عشية ما لي حيلة غير انني بلقط الحصى والخط في الأرض مولع
اخط وامحو الخط ثم اعيده بكفي والغزلان حولي وقع
عشية ما في من أقام (بعزب) مقام ولا في من مضى متسرع

وانظر إلى هذا التصور الرائع لذهل المحب المهجور ومحاولته السلو والترويح عن نفسه بالعبث في هذين البيتين:

عشية مالي حيلة غير انني بلقط الحصى والخط في الأرض مولع
أخط وامحو الخط ثم أعيده بكفي والغزلان حولي وقع

ويهتز شعوره للذكرى فينطلق قائلاً:

وذكرني الصبا بعد التناهي حمامة ايكة تدعو الحماما
اسيلاخده والجيد منه تقلد زينة خلقت لزاماً
كساه الله يوم دعاه (نوح) نظاماً ما يريد به نظاماً
أتيح له ضحى لما تنمى على الأغصان منصلتا قطاما
فقد حجابه بمذربات يرين الحائنات به الحماما
ترى الطير الزوائد معصمات حذارا منه بالغيل اعتصاما
دعته فلم يجب فبكته شجوا فهيج شوقها ورقا تواما
كان الأيك حين صدحن فيه نوائح يلتذذن به الندامى
فهيج ذاك مني الشوق حتى بكيت وما فهمت لها كلاما

وما أجمل هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة:

دعته فلم يجب فبكته سجواً فهيج شوقها ورقا تواما
كان الايك حين صدحن فيه نوائح يلتذذن به الندامى
فهيج ذاك منى الشوق حتى بكيت وما فهمت لها كلاما

وقوله:

أيا شبه ليلى جادك الغيث وانبرى لك الرشد واخضرت عليك المراتع
سقاك خُداريّ اذا عج عجة حسبت الذي يدنو أصم المسامع
يمان على (نجران) ايمن صوبه ومنه على (سلمى) و (سلمان) لامع
ومنه على قصري (عمان) سحيقة وبالخط نضاح العثانين واسع
تذود الصبا ريعانه وهو راجح كما ذيد حوم عن نضيح روائع

تزحف أعلاه الجنوب براكس ... كما دب أدنى مائل الحمل ظالع
يكب طويل الطلح في حجراته ... وتحيا عليه المسنتات البلاقع

وقوله:

طربنا حين أدركنا ادكار ... وحاجات عرضن لنا كبار
لحقن بنا ونحن على (ثميل) ... كما لحقت بقائدها القطار
فرقرقت النطاف عيون صحبي ... قليلاً ثم لج بها انحدار
فظلت عين أجلدنا مروحا ... ـ مروحا في عواقبه ابتدار
كسول في معينة مروح ... يشد على وهيتها المرار
وكناجيرة بشعاب (نجد) ... فحلّ البين وانقطع الجوار
سماطر في غداة (اثيقيات) ... وقد يهدا التشوق إذ أغاروا
إلى ظعن لاخت بني (غفار) ... بكآبة حيث زاحمها العقار
يرجحن الحمول مصعدات ... (لعكاش) فقد يبس القرار
ويمن الركاب (بنات نعش) ... وفينا عن مغاربها أزورار
نجوم يرعوين إلى نجوم ... كما فاءت إلى الربع الظوار
فقلت ـ وقل ذاك لهن مني ـ ... سقى بلدا حللن به القطار
رأيت وصحبتي (بصنا صران) ... حمولا بعدما منع النهار
نئين على الرحال وقد ترامت ... لأيدي العيش مهلكة قفار
كأن أواسط الأكوار فينا ... بنون لنا نلاعبهم صغار
فليس لنظرتي ذنب ولكن ... سقى أمثال نظرتي الدرار
يكاد القلب من طرب اليهم ... ومن طول الصبابة يستطار

يـظل مجنت الكنفين يهفـو هفو الصقر أمسكه الاسار
وفي الحي الذين رأيت خود شموس الانس انسة نـوار
بَرُود العارضين كان فـاها بعيـد النوم عـاتقة عقـار
إذا انخضر الوساد بها فمالت مميلاً فهو موت أو خطار
تـرد بفترة عضـديك عنهـا إذا اعتنقت ومال بها انهضار
يكاد الزوج يشربها إذا ما تلقـاهـا بنشـوتها انبهـار
شميـاً تنشر الاحسـاء منه وحبـا لا يبـاع ولا يعـار
ترى منها ابن عمك حين يضحى نقي الكون ليس به غبار
كوقف العاج مس ذكي مسك تجيء به من اليمن التجار
إذا نادى المنادي بات يبكي حذار الصبح لو نفع الحذار
ورد الليل زيد عليه ليل ولم يخلق لـه أبـدا نهار
يـرد تنفس الصعـداء حتى يكون مع القرين له قرار
كـان سبيلة صفراء شيفت عليها ثم ليث بها الخمار
يبيـت ضجيعهـا بمكـان دَلّ ومـلح مـا لسـاكنه غـرار

.ومن غزله قوله:

بان الخليط فما للقلب معقول ولا على الجيرة الغادين تعويل
أما همو فعداة مـا نكلمهم وهي الصديق بها وجد وتخبيل
كأنني يوم حث الحاديان بها نحو (الآوانة) بالطاعون متلول
يوم ارتحلت برحل دون برذعتي والقلب مستوهل بالبين مشغول
ثم إغترزت على نضوى لأبعثه أثر الحمول الغوادي وهو معقول

فاستعجلت عبرة شعواء قحمتها ماء ومال بها في جفنها الجول

فقلت ما لحمول الحي قد خفيت أكل طرفي أم غالتهمو الغول

يخفون طوراً فأبكي ثم يرفعها آلُ الضُّحى والهبلات المراسيل

وتثور الذكرى في نفس (جران العود) فيتساءل عن الديار وأهلها وتوحي إليه أن يقول:

هل أنتم واقفون على السطور فننظر ما لقين من الدهور

تركن براحة الروحاء حتى تنكرت الديار على البصير

كوحي بالحجارة أو وشوم بأيدي الروم باقية النشور

وقوله:

وليس بعائد يوم التقينا بروض بين مَحْنِيةٍ وقور

فتقضيني مواعد منسيات واقضي ما علي من النذور

وأشفي ان خلوت النفس منها شفاء الدهر في أثر اثير

فليت الدهر عاد لنا جديداً وعدنا مثلنا زمن الحصير

وعاد الراجعات من الليالي شهوراً أو يزدن على الشهور

وقوله:

نبئت أن (بريداً) خف حاضره منه وزايله المرعي واهمل

وقد رأيت بها الاصرام يجمعهم سهل الأباطح لا ضيق ولا جرل

هذه أمثلة من الشعر الغزلي (لجران العود) نجد فيها حلاوة وعليها طلاوة. ولها روعة فيها حلاوة الفطرة .وعليها طلاوة الجمال ولها روعة الحب.

القصص في الشعر العربي

الشعر الجاهلي في رأيي ـ حافل بالقصص ولكنه مبعثر هنا وهناك بيد ان الشاعر الجاهلي ـ بحكم بيئته لا ينظم فيه إلا قصة قبيلته ومكانها من القبائل ومحاربتها معها وقصته مع حبيبته ورحلتها وبعد المزار بينهما وغير ذلك مما تمليه عليه طبيعة بيئته الخاصة.

والشعر العربي مليء بالوصف والتصور ولكن الشاعر قد اقتصر فيه على وصف فرسه وجمله وصحرائه وديار أحبته وما يكلف بأكثر من هذا فيجب على الناقد الأدبي ألا يتطلب من تصور الشاعر الجاهلي وتصويره ما يتطلبه من الشاعر العصري فـالذين يتهمون الأدب العربي بالقصور من الناحيتين ـ القصصية والتصويرية ويميزون الآداب الأجنبية على أدبهم ويرفعونها مكاناً علياً بدعوى امتيازها بهاتين الظاهرتين

منساقون في ذلك بآراء المستشرقين الذين يحاولون انقاص الأدب العربي والغض من كرامته.

إلا فليكلف أولئك أنفسهم بالنظر في دواوين الشعراء الجاهليين إذا أرادوا أن يتسنى لهم الحكم العادل والقول الفيصل الحق لوجه الحق وحده وينقدوا على أساس علم بالبيئة والتاريخ.

ولئن عاب بعض الذين أولعوا بنقد الشعر العربي القديم وجعلوا تاريخه ـ عليه اضطراب الوحدة المعنوية في قصائده فلقد فاتهم ان كثيراً من هذا الذي نسميه الشعر الجاهلي قد ضاع وان كثيراً من القصيدة الواحدة أو بعضاً منها على الأقل قد ذهب مع قائله وانما يقل هذا حين تكون للقصيدة شهرة تحرزها من الضياع أو النسيان وهذا النوع من الشعر قليل نادر كالمعلقات ونحن إنما أخذناه عن الرواة والحافظين والذاكرة أو الحافظة تنسى فتنقص القصيدة أبياتاً وتنسى فتغير من ألفاظها ويختلط عليها الأمر فتقدم فيها وتأخر ومن هنا جاءت نسبة القصيدة الواحدة في بعض الأحايين إلى عديد من الشعراء وتداخل أبيات بعض القصائد في الأخرى وزيادة بعض الروايات للقصيدة ـ الواحدة عن الروايات الثانية ونحو ذلك.

والشاعرون يزعجهم أن ينتزع من القصيدة أو يختلف فيها بعض بيت وما ذلك إلا لشعورهم بتفكك الوحدة المعنوية عندئذٍ.

فعلى ناقدي الأدب العربي أن يقرأوه قبل كل شيء وليتعهدوا ما يقرأون بالدراسة والتحليل وأنا زعيم لهم - في شيء كثير من الثقة والأمل ان سيعجبون بكثير مما يقرأون من هذا الشعر العربي الجاهلي وان - ستأخذهم روعته ويتملك عليهم مشاعرهم النابضة سحره .

قصص جران العود وتحليل نموذج منه

وانك لواجد في (جران العود) روح الشاعر القصصي والقصة الشعرية العربية المفقودة وانه يصح أن يكون من الأدلة على وجود القصة الشعرية في ألأدب العربي. وإليك قصيدة فيها شيء من قصصه مزيج بالفكاهة والتنادر والحكمة نريد أن نعرض لها في تحليل موجز.

قال أبو عمرو. كان (جران العود) والرحال خدنين

تبعين ثم انهما تزوج كل منهما. فلما اجتمعا لم يحمدا ما لقياه فقال (جران العود):

مقدمة الرواية:

ألا لا يغرن امرأ نـوفلية   على الرأس بعدي أو ترائب وضح
ولا فاحم يسقي الدهان كأنه   اساود يزهاها لعينيك أبطح
وأذناب خيل علقت في عقيصة   ترى قرطها من تحتها يتطوح
فإن الفتى المغرور يعطي تلادة   ويعطي الثنا ـ من ماله ـ ثم يفضح
ويغدو بمسجاح كان عظامها   محاجي أعراها اللحاء المشبح
إذا ابتزعنها الدرع قيل مطرد   احص الذنابي والذراعين ارسح

فهو يقدم إلينا في هذه الأبيات خلاصة تجاربه في عالم الاختلاط بين الجنسين. فيقف موقف الناصح أو الأستاذية ينصح إلى الرجل الا يغره المشط الجميل الذي يتخذه النساء حلية لهن ولا الترائب الشيقة التي تزدان بها صدورهن ولا شعورهن التي يتموج فيها الدهان أو تتموج هي في الدهان ولا قدودهن الرشيقة تتمايل كغصن البان وتتحرك في رقة النسيم فالزوج شريكة حياة لا تكفي لترشيحها لذلك هذه الخزعبلات. فلا يغرن الفتى منظر يخدع به ثم لا يكون نصيبه من المخبر إلا أسوء ما يكون.

وفي هذا المعنى نفسه يقول الشريف الرضي:

ما كل مثمرة تحلو لذائقها   ان السياط لها من مثلها ثمر

ثم يأخذ (جران العود) في التدليل على هذه النظرية فيقص علينا قصته الفكاهية العذبة مع امرأتيه السريرتين فيقدم لنا يندب حظه:

كتمهيد للرواية

فتلك التي حكمت في المال أهلها — وما كل مبتاع من الناس يربح
تكون بلوذ القرن ثم شمالها — أحت ـ كثيراً ـ من يميني واسرح
جرت يوم رحنا بالركاب نزفها — عقاب وسحاج من الطير ميتح
فاما العقاب فهي منها عقوبة — وأمـا الغراب فالغريب المطوح
عقاب عقبناه ترى من حذارها — ثعالب أهوى أو أشاقر تضبح
عقاب عقبناه كان وظيفها — وخرطومها الأعلى بنار ملوح
لقد كان لي عن ضرتين ـ عدمتني ـ — وعما ألاقي منهما متـزحزح
هما الغول والسعلاة حلقي منهما — مخدش ما بين التراقي مجرح
لقد عالجتني بالنصاء وبيتها — جديد ومن أثوابها المسك ينفح

في هذه الأبيات سطر جران العود تمهيداً لروايته الكاريكاتورية كوسيلة لتقديم:

الفصل الأول

بقوله:

إذا ما انتضينا فانتزعت خمارها — بدا كاهل منها وراس صمحمح
تداورني في البيت حتى تكبني — وعيني من نحو الهراوة تلمح

وقد علمتني الوقذ ثم تجرني   إلى الماء مغشياً علي أرنح
ولم أر كالموقوذ ترجى حياته   إذا لم يرعه الماء ساعة ينضح
أقول لنفسي أين كنت وقد أرى   رجالاً قياماً والنساء تسبح
أ(بالغور) أم(بالجلس)أم حيث تلتقي   مزالق من وادي (بريك) وابطح

ثم تبلغ (بجران العود) روحه حنجرته فيطلب المخرج من هذه الورطة بكل وسيلة فيقول لامرأتيه خذا نصف مالي واتركا لي نصفه:

خذا نصف مالي واتركا لي نصفه   وبينا بذم فالتغرب أروح
فيا رب قد صانعت عاماً مجرما   وخادعت حتى كادت العين تمصح
وراشيت حتى لو تكلف رشوتي   خليج من (المران) قد كاد ينزح
أقول لأصحابي أسر اليهمو   لي الويل ان لم تجمحا كيف أجمح

ثم تبلغ به الحيرة مبلغها فيتساءل مخاطباً نفسه:
أأترك صبياني وأهلي **وأبتغي**   معاشا سواهم ام اقر **فأذبح**

ثم يشرح لنا سر هذه الحيرة فيقول:
الاقي الخنا والبرح من أم حازم   وما كنت ألقى من رزينة ابرح
تصبر عينيها وتعصب رأسها   وتغدو غدو الذئب **والبوم يضبح**

ثم يصفها فيقول:
ترى رأسها في كل مبدى ومحضر   شعاليل لم يمشط ولا هو يسرح
وان سرحته كان مثل عقارب   تشول بأذناب قصار وترمح

ثم يعود إلى قصته قائلاً:

تخطى إلي الحاجزين مدلـة يكاد الحصى من وطئها يترضح
كِنازٍ عقرناه إذ ألحقت به هوى حيث تهويه العصا يتطوح
لها مثل أظفار العقاب ومنسم أزج كظنبوب النعامة أروح

وجران العواد يستعمل هذه المقاطع كفواصل بين أدوار القصة ليعود فينشر لنا من فصولها.

الفصل الثاني

إذا انفلتت من حاجز لحقت به وجبهتها من شدة الغيظ ترشح
وقالت: تبصر بالعصا أصل أذنه لقد كنت أعفو عن جران وأصفح
فخـر وقيـذا مسلحبـا كأنـه على الكسر ضبعان تقعر أملح

ويعود إلى التمثيل.

الفصل الثالث

بقوله:

ولما التقينا ـ غدوة ـ طال بيننا سباب وقذف بالحجارة مطرح
أجلى اليها من بعيد واتقى حجارتها ـ حقا ـ ولا امزح
تشج ظنابيبي إذا ما اتقيتها بهن وأخرى في الذؤابة تنفح
أتانا ابن (روق) يبتغي اللهو عندنا فكاد (ابن روق) بين ثوبيه يسلح
وانقذني منها (ابن روق) وصوتها كصوت علاة القين صلب مميدح
وولى راوي اليدين عظامه على دفق منها ـ موائر جنح

ولكن جران العود بعد هذا كله يظهر بموقف العاقل المفكر فلا تحمله هذه التجاريب القاسية في عالم الاختلاط بين الجنسين على السخط المر على هذا النوع من البشر (هذا الذي نسميه الجنس اللطيف في عصر الحذلقة وان كنت لا أحمل عليه ولا أفرق بين الجنسين ففي كل منهما ما في الآخر من خير وشر). فيتم نصيحته التي ابتدأ بها روايته بهذه الكلمة .

كخاتمة للرواية

ولسن باسواء فمنهن روضة تهيج الرياض غيرها لا تصوح
جمادية أحمى حدائقها الندى ومزن تدليه الجنائب دلح
ومنهن غل مقمل لا يقله من القوم الاالشحشحان الصرنقح

ويعود (جران العود) إلى قصته مع زوجتيه فيقول : **كنهاية**

عمدت (لعود) فالتحيت جرانه وللكيس أمضى في الأمور وأنجح

وهنا تبدو طبيعة (جران العود) الكاريكاتورية أو نفسه الكاريكاتورية فبعد أن طرحنه أرضاً وطاردنه بالهراوة ولعبن به على أصابعهن كما يقول وجد الحزم أمضى في الأمور وأنجح فعمد إلى عود (بعير مسن) فاتخذ جرانه (عنقه) أداة يوقفهن بها عند حدودهن.

وهو ـ بالرغم من هذا الحزم الذي أراد أن يأخذ به نفسه

لا يزال يأخذه الفزع والخور منهما فيقول:

وصلت به ـ من خشية ان تذكلا ـ يميني سريعاً كرها حين تبرح

ولكنه يعود فيغالب نفسه ويهدد:

خذا حذراً يا حنتي فإنني وجدت (جران العود) قد كاد يصلح

كلمتنا في جران العود

والآن:

فلنخلص إلى (كلمتنا في جران العود) لنقول فيه حكماً نزيهاً نتحرى فيه الحق ونرغب إلى الصواب.

ولقد آن لنا أن نلفظ الكلمة بعد أن جمعنا حروفها. ونفصح عن الرأي بعد أن لممنا شعث كلماته. فنظمنا جُملاً. ولنجهر بنتيجة التحقيق بعد أن مهدنا لها المقدمات وأدلينـا الينا الدلاء.

لقد قرأنا كلمة التاريخ في (جران العود) وتقفينا أثر البيئة فيه وحللنا نفسيته وتفهمنا أثرها في شعره ودرسنا عقليته وشرحنا حكمه وبلغنا مبلغ خياله وفحصنا صوره الشعرية ورأينا بديعه وسمو عواطف الغزل وخصائص القصص من شعره من مجموعة خياله وغزله وقصصه.

تلك هي بيانات الحكم فما دلالاتها؟.

لقد ابنا دلالاتها حيث هي في مواضعها من سياق الحديث وتلك هي حيثيات الحكم فما الحكم؟

ذلك ماأتركه لرأي القارىء الكريم. أما فيلسوف المعرة فقد لقبه بالشاعر المحسن وأما أنا فقد حكمت».

مَطَابِع المقاصد الإسلاميّة